حوليـــــات
جـــامعة الجـــزائر
العدد 22/ جويلية 2012

الوظيفة الاقناعية للحجاج
في الدراسات العربية والغربية

الأستاذة: فتيحة لعلاوي

قسم: علوم اللسان– جامعة الجزائر2

البريد الالكتروني: lalaouifatiha@yahoo.fr

الملخص

يتناول هذا المقال الوظيفة الاقناعية للحجاج في كل من الدراسات العربية والغربية، من خلال التعرض إلى أهم الأفكار والإجراءات النظرية المثارة في هذا الموضوع، مبرزين الكيفية التي عالج بها الباحثون اللسانيون مسألة الإقناع انطلاقا من الخطاب الفني.

Cet article traite la fonction persuasive dans l'argumentation dans les études arabes et européens, en relevant les plus principes réflexions élaborer sur la question, en soulignant les interprétations exposer par des nombreux chercheurs linguistes sur le thème de la persuasion dans le discours littéraire.

تمهيد

الحجاج وسيلة من وسائل الإقناع والتعبير عن الرأي وتفنيد الرأي المعارض ولا يخلو نص أدبي من الحجاج حتى الشعر، ونجده كذلك في أعمال أخرى، علمية إعلامية، نقدية فكرية، وفلسفية وقضائية، التي أساسها مقابلة الرأي بالرأي ومقارعة الحجّة بالحجّة. إلى جانب هذا، نجد أنّ الحجاج يأخذ أشكالا مختلفة؛ من أهمها: الاستدلال المنطقي، والحجاج الخاطئ. كما يقوم على آليات حجاجية متمثلة في الخطاب الحجاجي البلاغي، والخطاب الفلسفي، والخطاب الحجاجي التداولي.

ويتطلب نجاح الفعالية الحجاجية، تلازما بين الحجّة ونتيجتها، وهذا الأمر يدخل ضمن نظرية السلالم الحجاجية، التي تُعد من مقوّمات عملية المحاجة في الخطاب الطبيعي. كما نجد أنّ الخطاب الحجاجي يتسق نصّه بأدوات منطقية ولغوية، تعمل على توجيه المسار الحجاجي لذلك النّص، وهو ما يطلق عليها: الروابط الحجاجية، التي لها وظيفة إستراتيجية حجاجية، هدفها توجيه مسار الفعالية الحجاجية الوجهة التي يبتغيها المخاطب قصد تغيير التوّجه الحجاجي للطرف الآخر (المتلقي).

ـ **<u>الحجاج ووظيفته الإقناعية في البلاغة الغربية</u>** لقد ميّز(بيرلمان وأولبريشت تيتيكاPerelman et Olbretch Tyteca فعلا بين مستويين من التسليم (أو القبول بالرأي المعروض): التسليم الآتي من الخارج حسب المقام وتترجمه كلمة persuasion والتسليم المنبعث من داخل النفس باطمئنان وتترجمه كلمة conviction وهذا النوع الثاني هو الذي يَنتج عن مخاطبة مستمع كوني auditeur universel حيث تلتقي أفهام العقلاء. وهو موضوع الحجاج بمعناه الحق في نظرهما؛ ففي إطاره تتحقق الحرية؛ أي الإفلات من

الإكراهات الخارجية. فقديما لاحظ أرسطو أنّ الحاجة إلى الأسلوب نابعة من أنّ عامة الناس " يتأثرون بمشاعرهم أكثر ممّا يتأثرون بعقولهم[1].

ويرجع هذا التقارب والتباعد إلى الالتقاء في الموضوع والغرض (الإقناع)، والاختلاف في مجال التطبيق. فمن حيث المنطلق نلتقي في استلهام خطابة أرسطو، فقد قادت طبيعة الموضوع هؤلاء المناطقة كما قادتنا النصوص الخطابية المختلفة إلى رحاب البلاغة الأرسطية. يقول بيرلمان في كتابه: حقل الحجاج: "موضوع نظرية الحجاج هو دراسة التقنيات الخطابية الهادفة إلى حثّ النفوس على التسليم بالأطروحات المعروضة عليها، أو تقوية ذلك التسليم. كما تفحص أيضا الشروط التي تسمح بانطلاق الحجاج ونموّه، وكذا الآثار المترتبة عنه[2] هذا ما يجعلنا نخلص إلى استنتاج، ألا وهو أنّ الحجاج ما هو إلا عملية فعل وردة فعل بين الملقي والمتلقي.

كما يستلهم التعريف السابق التعريف الأرسطي المشهور الذي نلتقي حوله. وهو حسب الترجمة العربية القديمة: "الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[3]، وهذا ما صرّح به بيرلمان Perlman رابطا لاحق كلامه بسابقه: "إن نظريةً للحجاج من هذا القبيل توجه الذهن، حين النظر موضوعها، إلى البلاغة القديمة، ولكنني إذ أعالجها من زاوية هموم عالم المنطق سأضطر لتقليص مباحثي من جانب وتوسيعها من جانب آخر"[4]. من خلال هذا القول، نجد أنّ بيرلمان يريد الإشارة إلى طبيعة المدوّنة التي تشمل المكتوب والمنطوق، فهو لا يقنع بالمكتوب دون النظر في خصوصيات الخطاب الشفوي، الذي تظهر فيه كل الإمكانات الحجاجية التي يوّظفها الملقي والمتلقي معا.

ـ **الحجاج ووظيفته الإقناعية في البلاغة العربية** لقد عالجت البلاغة العربية، شأنها في ذلك شأن البلاغة في الثقافات الأخرى في أغلب الأحيان نصوصا وخطابات أدبية يحكمها الوعي والقصد، ولم يكن البلاغي يهتم بالخطاب الذي يكتفي بذاته ولا يعير اهتماما لمخاطبه، ولم تكن البلاغة تعتبر النّص كلاما يهم المتكلم أو كلاما مكتفيا بذاته، بل اهتمت أساسا بالنّص الذي يتوجه إلى الآخرين.

كما نجد أنّ البلاغة كانت تؤسس جسور التواصل بين الشعر والخطابة، بين التخييل والإقناع. وهذا عمل مفيد وثريّ لم ينل إلا القليل من الاهتمام في الدرس البلاغي المعاصر. ويجمع الدارسون العرب على أنّ بلاغة الخطاب في فترة التأسيس مع الجاحظ، وفترة الاكتمال وبلوغ الذروة تلاها تراجع وانكماش وهذا مع السكاكي، باستثناء حالات قليلة كما هو الحال مع حازم القرطاجني ويظهر لنا ذلك من خلال كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، و"كتاب البديع" لابن المعتز، وكتاب "الصناعتين" للعسكري، وكتاب "سرّ الفصاحة" للخفاجي، وكتابا "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" للجرجاني، وكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي.

ومن هنا نجد أنّ بلاغة الخطاب الإقناعي تُمثل جزءا من الإشكاليات التي شغلت التفكير الإنساني على امتداد قرون، وكان التركيز فيها على مكوّنات النص التي من أهمّها: اللفظ والنظم والمجاز. فاللّفظ كوسيلة لإقناع الآخر، حاولت البلاغة – كعلم – تحديد الشروط والقواعد التي تسمح باستعمال شعريته في الإقناع والتأثير. وتعد البلاغة العربيـــة من خلال مصطلحات مثل الفصاحة والبيان والبديع، ذات فعاليـــة نصية مهمة وإمكانا من إمكانات الخطاب الأساسي؛ هذه الإمكانات التي تحددها مجموعة من

الكفاءات، لغوية، أدبية، ثقافية تداولية، نفسية انفعالية. فأوّل ما يحتاجه مؤلف الكلام معرفة اللغة والعلم بقواعدها اللغوية والأدبية والقدرة على الإبداع والابتكار وإنتاج الكلام البليغ. وتعني الكفاءة الثقافية أن يعرف مؤلف الخطاب ثقافة العالم الذي يريد أن يتدخل فيه، وأن يوّظف هذه الثقافة في الإقناع والتأثير.

وتعني الكفاءة النفسية الحالة النفسية لإنجاز الخطاب ولأدائه أمام السامع أو القارئ. والخطاب الإقناعي في البلاغة العربية كما أشار إليه الجاحظ في البيان والتبيين – ينبني على خمس وسائل لا تنقص ولا تزيد، وهي اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة*[5]. هذه الوسائل التي تحقق كفاءة الإنجاز؛ والتي تعني أنّ المتكلم يستعمل صوتــه حركته وجسده ولباسه وهيئته...إلخ، بالشكل الذي يسمح بالحديث عن بلاغات أخرى غير لفظية، يستغل المتكلم إمكاناتها في التأثير والإقناع. كما يقوم الخطاب الإقناعي[6] على أفكار من أهمّها أنه ليس هناك في بلاغة الخطاب الإقناعي فصل أو تعارض بين المتكلم والمخاطب، بل هما قطبا رحى يتشكل بهما الخطاب وتنجح العملية التواصلية في سبيل قناعة ما.

وقد اقترن الخطاب الإقناعي عند عامة الدارسين بالأسلوب، ويُعرّف أسلوب الخطاب لهدف الإقناع أنه " أسلوب يعتمد على المحسنات اللفظية والتأثير العاطفي"[7]. وبهذا فالأسلوب في حدّ ذاته يعد من تقنيات المحاجة، التي يتوسل بها الخطيب بغرض التأثير والإقناع. ومعروف انّ الأسلوب الغرض منه الإمتاع والتأثير في المتلقي وفي هذا السياق، يؤكد طه عبد الرحمن على هذه الوظيفة الإقناعية بقوله :" وقد تزدوج أساليب الاقناع بأساليب الامتاع فتكون...أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب وتوجيه سلوكه كما يهَبُه هذا

الامتاع من قوة استحضار الأشياء ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأى العين "[8]. وهذا نهج الجاحظ في التأليف الذي جمع بين أسلوبي الإمتاع والإقناع لغرض توجيه المتلقي إلى ما يدعو إليه من آراء.

ـ **تحليل الخطاب والنمط الحجاجي للغة** يهدف كل خطاب أو قول إلى التأثير في المخاطب وحمله على الاقتناع. وبالتالي استمالته لصالح دعوى المتكلم، وهذا يتضمن أنّ كل خطاب ينطوي على شكل من أشكال الحجاج والبرهنة، وعلى هذا المستوى نجد أنواعا عديدة من الخطاب؛ منها ما هو ديني أو فلسفي أو علمي أو فني... بل متعددة داخل الخطاب الواحد.

والجدير بالذكر أنّ الدراسات بمختلف علومها، من بلاغة ومنطق وجدل وفلسفة بما فيها الخطابة امتزجت بالحجاج، إلا أنّ الخطابة والجدل اقترنا بالبلاغة في صورتها التقليدية، حيث لا يميّز فيها بين الإقناع والإغراء، الأمر الذي أدى إلى اعتبارها أسلوبا "للمغالطة والمناورة"[9].. الذي يهدف إلى التلاعب بعواطف الجمهور وبعقله أيضا ودفعه إلى القبول باعتباطية الأحكام ولا معقوليتها. ولقد بقيت مختلف العلوم الإنسانية بما فيها الخطابة والجدل مقترنة بالبلاغة زمنا طويلا إلى أن ظهرت مختلف المدارس اللغوية بداية من دوسوسورDe Saussure الذي مهّد إلى ظهور مدارس متباينة في حقل الدراسات اللّغوية. بيد أنّ المدرسة البلجيكية الرائدة في مجال الدراسات البلاغية عامة والحجاجية خاصة، والذي تمخض عن جهودها، دراسة لغوية قيّمة لـــ: بيرلمان Perelman وتيتيكا Tyteca سنة 1958 الموسومة "مصنّف في الحجاج" « Traité de l’argumentation » وإلى جانب هذا العنوان، عنوانا تفسيريا هو " البلاغة الجديدة " La novelle rhétorique » وبهذا العمل أخذت الدراسات اللغوية الحديثة منحى جديدا، يُعنى بصفة عامة " بدراسة تقنيات

الخطاب التي من شأنها أن تجعل العقول تذعن لما يطرح عليها، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجاز أو الإمساك عنه)، أو ما وفّق على الأقل في جعل السامعين مهيّئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة[10]. ومن هنا تحررت البلاغة من قيود المعيارية العقيمة، التي تنظر في الأشكال اللغوية فيما هو خطأ وما هو صواب، كما تخلصت الدراسات اللّغوية من الوهم القائم على تصور اللغة نظاما لتجسيد الواقع. إنّ اللغة حسب التّصور اللّساني الجديد نظام تتحول الأقوال في الواقع إلى أفعال ومنه فقد ميّز أوستين Austin بين ثلاثة أنواع، هي: الفعل اللفظي والفعل الإنجازي والفعل التأثيري « Acte locutoire, l'illocutoire, et le perlocutoire »[11]. التي تعد من أساسيات فرضيات النظرية اللسانية الحديثة، وبهذا فميدان الدّراسات حول موضوع الحجاج، نجده بصفة كبيرة يبرز في العلوم الإنسانية، لما تشمل عليه من أنماط مسخّرة للمحاجة. وهذا بالاعتماد على فكرة مفادها؛ أنّ كل خطاب يهدف إلى تدعيم وضع معيّن أو تعبير آخر أو اتخاذ موقف تجاه قضية ما، وأنّ كل تلك الخيارات لابد لها أن تتأسس على خطط حجاجية مقصود بها المخاطبون. وترتكز البلاغة الجديدة التي دعا إليها بيرلمان وزملاؤه، على فكرتين أساسيتين:

1. وجودية ظاهراتية في آن واحد، أساسها مقولة (هيدجر Hiedger) التي يقر فيها أنّ " اللغة " هي" الوجود" بكل أبعاده وأزمنته.

2. فتأويلية ومفادها ضرورة الانطلاق من اللغة المرسلة في مقام معيّن ثم تفكيكها والغوص فيها للوصول إلى مكوناتها وعلاقتها بالمتكلمين والمخاطبين، وهذه الفكرة تتخلص في الطّرح الآتي: الكيفية التي تدفع بها

الكلمات المخاطبين إلى الفعل[12]، وعليه فالحجاج مجاله اللغة الطبيعية لأنّها المجال الخصب لممارسة تقنية التفكيك والتركيب واستكشاف نمطية الخطاب في مختلف أشكاله اللغوية والأدبية.

ومجمل القول أنّ الوظيفة الإقناعية للحجاج تناولها الدارسون الغربيون حسب توجهاتهم في إرساء المفاهيم الجديدة للبلاغة الغربية، بينما نجد هذا الجانب من الدراسة عند العرب تمثل في نظريات مختلفة في تناول الخطاب الإقناعي الأدبي من خلال ربطه بعلم البلاغة.

ــ الهوامش:

1. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، دار البيضاء. بيروت 2002م، ص .87

2. النص في لغته الأصلية كما يلي:

« Une théorie de l'argumentation a pour objet l'étude des technique discursives visant à provoquer ou à accroitre l'adhésion des esprit aux thèses qu'on présente à leurs assentiment. Elle examinera aussi les conditions qui permettent à une argumentation de commencer et de se développer, ainsi que les effets produits par celle-ci ».

− Chaim Parelman, le champ de l'argumentation, presses universitaires de Bruxelles, Belgique 1970, p 13

.3 النص كما ورد في كتاب أرسطو :

La rhétorique est la faculté de découvrir spéculativement ce qui, dans chaque cas, peut être propre à persuader » -Aristote, Rhétorique, livre I, édition les Belle lettres, Paris 1991, p76..

– وفي الترجمة الحديثة لعبد الرحمن بدوي: " يمكن أن تحدد الخطابة بأنها: الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان" الخطابة لأرسطو ص29,

4. والنّص في لغته الأصلية:

"La théorie de l'argumentation, ainsi définie, nous fait penser immédiatement, par son objet, à l'ancienne rhétorique, que j'aborde pourtant avec des préoccupations de logicien, ce qui m'obligera, à la fois, à restreindre et étendre mes recherches«

− Parelman, le champ de l'argumentation, p 13

5. الجاحظ، البيان والتبيين،الجزء الأول، تحقيق: حسن السندوبي، دار المعارف، 1990.ص 25.

6. لقد ميّز ابن رشد ثلاثة أنواع من القول الإقناعي: أسلوب يعتمد التنبيه والترغيب والترهيب وضرب الأمثال والوعد والوعيد (الموعظة الحسنة) الخطابة ثم الجدال وهو قول

جدلي خاص بالمتكلمين ينطلق من مقدمات ظنيّة وينتهي إلى نتائج ظنيّة وأخيرا الحكمة وهي قول برهاني خاص بالفلاسفة ينطلق من مقدمات يقينية ويصل إلى نتائج يقينية.

7. المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت 2000، ص.396

8. عبد الرحمن، طه ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب 2000، ص .226

9. والفكرة في نصها الأصلي :

« L'art d'argumenter est toujours resté en partie synonyme de manipulation ».

−Yves Jeanneret, Les théories de l'argumentation : une redécouverte féconde, Sciences humaines, numéro 38, avril 1994, p13.

10. نص الكلام في لغته الأجنبية :

« le but de l'argumentation, avant nous-dites, est de Provoquer ou d'accroître l'adhésion des esprits aux thèses qu'on présente à leur assentiment : une argumentation efficace est celle qui réussit à accroître cette intensité d'adhésion de façon à déclencher chez les auditeurs l'action envisagée (action positive ou abstention), ou du moins à créer, chez eux, une disposition à l'action, qui se manifestera au moment opportun ».

−Traité de l'argumentation , 5e édition de l'université de Bruxelles , Belgique 1992. p59

− أنظر كذلك، عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص 299.

11. J. Austin, Quand dire c'est faire, How to do things with words, édition Seuil, Paris 1970, p115.

− الفعل اللفظي Acte locutoire: يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

− الفعل الإنجازي Acte l'illocutoire: وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي.(كالتحذير من عمل شيء، أو رجاء عمل شيء...)

– الفعل التأثيري Acte perlocutoire: ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع (أن يسعد، أن يغضب..).
12. محمد ولد الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس – ليبيا 2004، ص16.
ــ الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، الجزء الأول، تحقيق: حسن السندوبي، دار المعارف، 1990.
– محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، دار البيضاء. بيروت 2002م.
– محمد ولد الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس – ليبيا 2004.
– عبد الرحمن، طه ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب 2000.
عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال " مصنّف في الحجاج – الخطابة الجديدة – لبرلمان وتيتيكا، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، بإشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الانسانية، تونس، منوبة، 1988م.
– المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت 2000.
− Chaim Parelman, le champ de l’argumentation, presses universitaires de Bruxelles, Belgique 1970.
- Aristote, Rhétorique, livre I, édition les Belle lettres, Paris 1991.
- Yves Jeanneret, Les théories de l’argumentation : une redécouverte féconde, Sciences humaines, numéro 38, avril 1994.
−Traité de l’argumentation, 5e édition de l’université de Bruxelles , Belgique 1992. p59
− J. Austin, Quand dire c’est faire, How to do things with words, édition Seuil, Paris 1970.